الفصل الثامن

المناهج وطرق التعلم

المنهج صورة لأحوال المجتمع :

إذا شئنا أن نعرف العلة التى من أجلها وضع القابسى منهج التعليم للصبيان فى الكتاتيب ، أو أقره على النحو المذكور فى رسالته ، فينبغى أن ننظر إلى حالة المجتمع فى ذلك العصر ، لنرى مبلغ حاجاته ومطالبه . وعندئذ يتبين لنا السر الذى دفع المربين فى الإسلام إلى تعليم الصبيان علوماً معينة ، منها يتألف مانسميه المنهج الدراسى على الإصطلاح الحديث المعروف الآن .

وقد يكون المنهج واقعيًا ، وقد يكون مثاليًا ، وفى الحالتين يستمد وجوده من المجتمع . فالمنهج الواقعى ، وهو مايدرس بالفعل ، يستقى كيانه من المجتمع القائم ؛ أما المنهج المثالى ، فهو مايطالب به المفكرون والمصلحون ويلائم صورة المجتمع المثالية التى يتخيلها هؤلاء المفكرون فى مدنهم الفاضلة . ومنهج القابسى فى التعليم واقعى . كما سبقت الإشارة إلى ذلك فهو يصف ما كان متبعاً فعلاً فى الكتاتيب الإسلامية فى شمال أفريقية . وهذا المنهج المتبع فى عصره هو أثر البيئة الاجتماعية .

يقول بيتس : «على المجتمع يقع عبء تعليم الأجيال الجديدة ، والمجتمع هو الذى يهيئ البيئة الصالحة لنمو الأفراد . وعلى الأفراد أن يحملوا عبء المسئولية فيستجيبوا لنداء التعليم بحسن التعلم »[1] . وقد أورد المؤلف تعريفين للتعليم ، الأول يرمى إلى تنبيه مواهب الفرد ، والثانى إعداد الفرد للحياة الاجتماعية . والمقصود بمواهب الفرد القوى العقلية المختلفة كالذاكرة والابتكار والذكاء الملاحظة وما إلى ذلك[2] .

---

(١) Betts, Social Principles of Education, p. 30.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤

ويقول ألبير مالو أستاذ التربية بجامعة السوربون : «والآراء متفقة فى جميع الشعوب الحديثة على أن التعليم يجب أن يعد الفرد للحياة الاجتماعية أكثر مما هو حاصل الآن»[١]

والرأى عندنا أن التعليم إعداد للحياة الاجتماعية ، ولاننكر أنه يأخذ بيد الفرد فى طريق التقدم ، وبذلك يهيئه فى نهاية الأمر للحياة الاجتماعية .

ولانستطيع أن نفهم الخلاف فى مناهج التعليم خلال العصور المتعاقبة ، وفى الأمم المختلفة التى تعيش فى عصر واحد ، إلانتيجة اختلاف البيئات جميعاً .

فإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أن اليونان كانوا يعنون بتعليم الصبيان الرياضة البدنية بألوانها والموسيقى والأدب والقراءة والكتابة . وكانت عناية الإسبرطيين بالرياضة البدنية الشاقة شديدة ، على حين اتجهت أنظار الأثينيين إلى الموسيقى والأدب . ومناهج التعليم فى الدولة الرومانية كانت تشبه إلى حد كبير ما عند اليونان ، لأن الدولة الرومانية ورثت حضارة اليونان وثقافتها . هذه المناهج كانت تلائم البيئة الاجتماعية فى ذلك العصر . وهى مناهج تلائم الطبقة الأرستقراطية ، وتتفق مع انقسام الدولتين إلى طبقات فيها الأشراف والعامة . أما العامة فكانوا بعيدين عن التعليم لايلحقهم نوره ، أما أبناء الأشراف فكانوا يهيئون لهذه الحياة الخاصة بما فيها من لهو وترف وزينة ومتاع . ولم تكن هناك مدارس بالمعنى الصحيح ، بل كان الغالب اتصال الطفل بمعلم خاص .

وإلى عهد المسيحية الأولى كانت جميع المدارس لا دينية . وكان الأطفال يعلمون القراءة فى كتب مملوءة بالميثولوجيا . لذلك كان من الخطر على أبناء المسيحيين أن يتأثروا بما فى تلك الكتب من آراء تخالف الدين . واستمر الصراع بين المسيحية والوثنية شديداً ، وتأثرت البرامج الدراسية بالنظام الرومانى وبالكنيسة معاً . فقد كانت المعرفة باللاتينية ضرورية لفهم الإنجيل فى الترجمة المقبولة التى قام بها سانت جيروم . ثم أصبحت المعرفة باليونانية ضرورية أيضاً[٢] . ولما انتصرت المسيحية كان

---

(٣) Albert Millot, Les Grandes Tendances de la Pédagogie Contemporaine. Alcan. 1938. p. 17.

(٤) Adamson, A Short History of Education, p. 1 and 2.

الأطفال يلحقون بالمدارس الكنيسية يتعلمون فيها القراءة والكتابة والموسيق الكنسية وبعض الحساب[٥] . فالخلاف فى البرامج الدراسية عند المسيحيين عما كان عند الرومان ناشئ عن الخلاف فى الحياة الاجتماعية حيث اتخذ الدين المسيحى مكان الوثنية .

ووظيفة المنهج تحقيق أغراض التعلم . وللمنهج وظائف ثلاث :

١ - إبراز القيم الاجتماعية فى شعور الفرد .

٢ - حفز المواهب الفردية إلى النمو .

٣ - إعداد الفرد للحياة الاجتماعية[٦] .

وهذه الوظائف كلها ترمى إلى نتيجة واحدة هى إعداد الفرد للحياة الاجتماعية .

فإذا ألقينا نظرة سريعة على المنهج الذى وضعه القابسى لتعليم الصبيان نجد أنه متأثر بالبيئة الاجتماعية للمسلمين فى ذلك العصر ، وأنه يهيئ الصبيان للحياة الاجتماعية المستقبلة ، وذلك ببيان قيمة العلوم الواجب معرفتها إلى نظر الصبيان ، وإبراز وجه أهميتها وضرورتها فى عقولهم ، ثم تنمية المواهب الفردية التى تلائم المطالب الاجتماعية .

والبيئة الاجتماعية فى عصر القابسى كانت بيئة دينية خالصة . لذلك نجد المنهج الدراسى يدور حول محور الدين ، ويهيئ الصبيان لهذه الحياة الدينية .

وينقسم المنهج الذى ذكره القابسى إلى قسمين : إجبارى واختيارى . فالعلوم الاجبارية هى القرآن ، والصلاة ، والدعاء ، وبعض النحو والعربية والقراءة والكتابة . والعلوم الاختيارية هى الحساب ، وجميع النحو والعربية ، والشعر ، وأيام العرب وأخبارها .

هذا المنهج المتبع فى القرن الرابع الهجرى هو الذى كان متبعاً فى القرن الثالث أيضاً كما جاء فى كتاب محمد بن سحنون . ولا حاجة بنا إلى بيان أن المنهج على هذا

---

(٥) Cubberly, History of Education, p. 100.

(٦) Betts, Social Principles of Education, p. 247.

النحو هو الذى كان متبعاً فى الكتاتيب الإسلامية منذ نشأتها ، وأنه ظل متبعاً إلى عهد قريب جدًّا فى الكتاتيب فى شتى الأقطار الإسلامية . بل تستطيع أن تجزم إذا وجدت كتاباً فى أى قطر إسلامى أن ما يدرسه الصبيان فى هذا الكُتّاب لايختلف اليوم عما كان يدرس منذ ألف عام .

أما الخلاف الذى ذكره ابن خلدون فى طريقة التعليم فهو خلاف فى المظهر لا الجوهر . فبعض الأقطار كان يقدم تعليم الخط على تعليم القرآن ، والبعض الآخر كان يبدأ بتحفيظ القرآن ، يصحبه تعليم الخط أو يتأخر عنه قليلاً . أما الجوهر الثابت الذى لم يلحقه التغيير منذ ظهور الكتاتيب حتى عصور متأخرة ، بل حتى العصر الحاضر ، فهو تعليم القرآن والصلاة ، وما يصحب ذلك من معرفة للقراءة والكتابة وبعض النحو والعربية .

فى القرن الثامن الهجرى ، نجد الحافظ بن رجب البغدادى يصف المنهج على النحو الآتى : «فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها ، والتقيد فى ذلك بالمأثور عن الصحابة وتابعيهم فى معانى القرآن والحديث ، وفيما ورد عنهم فى مسائل الحلال والحرام والزهد ، والرقائق والمعارف وغير ذلك »[٧]

ولانزال فى العصر الحاضر ، فى مصر وفى الأقطار العربية الأخرى ، نشهد هذا اللون من التعليم فى الكتاتيب . وقد سجل الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام صورة واضحة لحياة الكتاب فى العصر الحاضر لانعتقد أنها تختلف عن تلك التى كانت جارية فى عصر القابسى .

والمشاهد الآن[٨] فى مصر وجود نوعين من التعليم الأولى يسيران جنباً إلى جنب : النوع القديم الذى يعتمد على تعليم القرآن والكتابة فى الكتاتيب ، والنوع الحديث الذى يضيف إلى جانب ذلك مبادئ الحساب ومبادئ العلوم .

(٧) فضل علم السلف على الخلف للإمام أبى الفرج زين الدين الشهير بابن رجب الحنبلى البغدادى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ - المطبعة المنيرية بالأزهر .

(٨) أظن أنه لاوجود اليوم للكتاتيب فى مصر ، بعد عشر سنوات فقط من الطبعة الأولى لهذا الكتاب . وقد اختفت تماماً مع هذه الطبعة الثالثة .

وسينتهى الأمر بالكتاتيب القديمة إلى الزوال عندما يطبق التعليم الإلزامى عن طريق الدولة ، فيزول آخر مظهر من مظاهر القديم .

هذا التحول الجديد دليل على تغير الحياة الاجتماعية ، ودليل على مسايرة الشرق للحضارة الحديثة ، والتقدم العالمى السريع .

على أن ثبات المنهج الدراسى هذه الفترة الطويلة من الزمان يحتاج منا إلى تفسير ؛ فالعلة فى هذا الثبات ترجع إلى سلطان التقاليد على المنهج ، والخضوع للتراث الموروث . وتأثير التقاليد الميلُ بالمنهج إلى المحافظة ، والنصوص الثابتة هى التى تحفظ المنهج(٩) .

والقرآن نص المسلمين الثابت ، وكتاب الله لامبدل لكلماته .

وستبقى برامج تعليم الصبيان عند المسلمين ثابتة ، مادام المسلمون متمسكين بدينهم وكتابهم ، إلا إذا اكتفى الناس بقدر يسير من الدين ، حتى يفسح المجال لدرس العلوم الحديثة كما هو واقع الآن .

أما القابسى فإنه لايقبل التهاون فى تعليم القرآن ، ويستعيذ بالله : «أن يتفق المسلمون على ترك القيام به ، ولو كان كذلك لكانت الهلكة المبيرة ، فأعوذ بالله من غضبه ، ومن أن ينتزع كتابه من صدور المؤمنين» ٣١ — ب .

هذه البيئة الدينية المستغرقة فى الشعور الدينى قد تغيرت الآن حتى بلغت حد التقابل فى بعض الممالك الغربية ، التى خلعت رداء الدين ، وعادت بالمدارس إلى اللادينية المطلقة . وهذا الاتجاه الحديث يحمل روح الثورة على التقاليد ، فلا ندرى أتفلح هذه الثورة فيلغى الدين ، أم تنتصر المبادئ الروحية على الموجة المادية الطاغية فيعود الدين إلى مكانته .

وإننا نسوق هذه المشاهدات والوقائع من الماضى البعيد إلى الحاضر القريب ، لنبين أن مناهج التعليم تستمد وجودها من التيارات الفكرية التى تسود المجتمع .

وقد كانت البيئة الاجتماعية فى عصر القابسى بيئة دينية بعيدة عن الروح المادى والنزعة الالحادية ، ولهذا ليس من الغريب أن يكون القرآن والصلاة وما يتصل

(٩) Betts p. 248

بالقرآن من علوم ضرورية لفهمه ، أول مايتجه الناس إلى تعليمه لأبنائهم . والقابسى يؤيد هذه الطريقة ويقرها ويطالب بدوام الاستمرار عليها .

العلوم الإجبارية فى المنهج :

القرآن هو أول العلوم التى ينبغى أن يدرسها الصبيان ، بل هو المحور الذى يدور عليه التعليم فى الكتاتيب .

ووجه الضرورة فى تعليم القرآن عند القابسى ، وعند غيره من الفقهاء ، ترجع إلى أسباب كثيرة : فالقرآن كلام الله ، وقد حث الله العباد على تلاوته فى غير آية ، ذكر بعضها القابسى ، مثل : «إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور» . وهنا نرى الجمع بين تلاوة القرآن وإقامة الصلاة ، والإحسان ، وهى أهم واجبات المسلم .

والقرآن مرجع المسلمين فى معرفة العبادات والمعاملات ، ولا سبيل إلى معرفة الحدود الشرعية الصحيحة للديانة إلا بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين وهو القرآن .

إلى جانب ذلك ، فإن الصلاة ، وهى ركن هام من أركان الدين ، لاتتم إلا بقراءة شىء من القرآن فيها ، فمعرفة القرآن ضرورية لآداء الصلاة المفروضة . وأقل جزء من القرآن تصح به الصلاة عند المالكية هو الفاتحة .

قال الدردير فى شرح مختصر خليل فى فقه المالكية : وإذا كانت الفاتحة من فرائض الصلاة ، فيجب على كل مكلف تعلمها إن أمْكَن بأن قَبِل التعلم ، ولو فى أزمنة طويلة وأيام كثيرة . ويجب عليه بذل وسعه فى تعلمها إن كان عسير الحفظ فى كل الأوقات إلا أوقات الضرورة ، ووجد معلماً ولو بأجرة(١٠) .

وللقرآن فضائل كثيرة ، وللنبى أحاديث تفيض بهذا الفضل ، مثل : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ، وفى ذلك حث على تعلمه وتعليمه . وقد أطال فقهاء المسلمين الذين كتبوا فى التربية فى ذكر فضائل القرآن ، وألف بعضهم كتباً

(١٠) شرح الدردير على مختصر خليل فى فقه مالك ج ١ ص ١٠٤ .

منفصلة ، ورسائل خاصة فى هذا الموضوع .

وقد انتهى الأمر بالفقهاء إلى فرض تعليم القرآن ، فقال صاحب مفتاح دار السعادة : «اعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة لئلا ينقطع عدد التواتر فيه ، فلا يتطرق إليه التبديل ولا التحريف . وتعليمه أيضاً فرض ، وهو من أفضل القُرَب» فى الصحيح : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(١١) .

والقابسى وبعض من الفقهاء يبدءون فى المنهج بتعليم القرآن ، وكانت هذه هى العادة المتبعة . وقد أراد أحد العلماء وهو أبو بكر بن العربى أن يؤخر تعليم القرآن ، وأن يبدأ الصبى بتعلم الشعر والعربية ثم الحساب ، فأنكر عليه ابن خلدون ذلك قائلاً : «وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال . ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إيثار التبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن»(١٢) .

وقد جرت العادة أن يتعلم الصبيان جميع القرآن ، ويعرف هذا بالختمة . على أن ختم القرآن لم يكن واجباً ، فقد يكتفى بثلاثة أرباع أو ثلثى أو نصف أو ثلث أو ربع القرآن ، حسب طاقة الصبى والظروف الخارجية الأخرى .

ويشترط القابسى فى تعليم القرآن : حسن الترتيل ، وجودة القراءة ، وحسن الوقف ، والأخذ عن مقرئ حسن ؛ وهو ينصح بقراءة نافع .

أما تعليم الصلاة فهو فرض عين على جميع المسلمين ، كما ذكر الفقهاء الذين قسموا الفرض قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية . ولذلك قال القابسى : ينبغى للمعلم أن يعلمهم الصلاة إذا كانوا بنى سبع ، ويضربهم عليها إذا كانوا بنى عشر . ويلزمه أن يعلمهم الوضوء للصلاة ، وعدد ركوعها وسجودها ، والقراءة فيها ، والتكبير ، والإحرام ، والسلام . والقابسى لا يكتفى بتعليم الصلاة المفروضة ، وإنما يذكر أنه : «ينبغى أن يعلمهم سنن الصلاة ، حتى يعلمهم دينهم ، الذى هو

---

(١١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة – طاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٥٣ ، جـ ٢ ص ٢٥٩ .

(١٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٩ .

تعبدهم الله عز وجل وسنة نبيهم » .

فالصلاة هي الواجب الديني المفروض على الذكور والإناث . وقد سمى النبي عليه السلام الصلاة : عماد الدين ، وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة[١٣] .

ولا عذر في التخلف عن الصلاة . وفي ذلك يقول الإنباني : «وأن لا يسامح (أي الصبي) في ترك الطهارة والصلاة ونحوهما» .

ومن الأمور التي يرى القابسي وجوب تعليمها الدعاء : «ليرغبوا إلى الله عز وجل ، ويعرفهم عظمته وجلاله ، ليكبروا على ذلك» .

والصلاة مع أنها عبادة فيها ركوع وسجود لا تخلو من الدعاء ، وقد جمع الله بين العبادة والدعاء في فاتحة الكتاب قائلاً : «إياك نعبد وإياك نستعين» . فالجمع بين وجوب تعليم الصلاة والدعاء والقرآن ليس غريباً ، لأن هذه الأمور الثلاثة تجمع بين الفكر والوجدان والعمل ، وترمي إلى غرض واحد هو معرفة الله معرفة صحيحة كاملة ، والإيمان به إيماناً صادقاً ، ولا يتم ذلك إلا بالعبادة والحمد والشكر والتسبيح ، والالتجاء إليه بطلب الهدى والرحمة ، وكشف المصيبة والغمة .

وحفظ القرآن يزيد في معرفة الإنسان لله ، لما جاء فيه من آيات دالة على الوحدانية ، دافعة إلى الإيمان الصحيح ، وما فيه من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، ووصف للجنة والنار ، وما فيهما من نعيم وعذاب .

وفي الأثر أن الرسول كان يقرأ في الصلاة سوراً طويلة بأكملها ، كالبقرة وآل عمران والنساء ؛ وعلى ذلك جرى الصحابة والتابعون . وقد كان القابسي أميناً على هذه السنة فقرر أن القرآن في الصلاة خير من القرآن في غير صلاة . لهذا لم يكن من الغريب أن يسعى الناس إلى تحفيظ أبنائهم القرآن بأكمله ، تبركاً به كما يقول ابن خلدون ، وزيادة في القرب من الله على رأي القابسي .

على أن المعرفة الصحيحة للقرآن تستلزم العلم بالنحو لإعراب الكلمات إعراباً

(١٣) تفسير النسفي لآية : الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . في أول البقرة .

صحيحاً ، والعلم باللغة العربية لفهم معانى القرآن ، والعلم بالهجاء والخط لكتابته والنطق به صحيحاً .

والإعراب يميز المعانى ويوقف على أغراض المتكلمين[١٤] .

وذكر القابسى عن ابن وهب : «أرأيت الرجل يتعلم العربية ليقيم بها لسانه ويصلح بها منطقه ؟ قال : نعم فليتعلمها ، فإن الرجل يقرأ الآية فيعى بوجهها فيهلك» ٤٦ – ١ .

وقد نص الله فى أول سورة نزلت على فضل القلم والكتابة فقال : «اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم» . فنبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو . وما دوّنت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة . ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا[١٥] .

فالنحو والعربية والخط من «معانى التقوية على القرآن» ٤٣ – ١ . وتعليمها واجب على المعلم كما نقل القابسى على ابن سحنون : «إنه ينبغى أن يعلمهم إعراب القرآن ، ذلك لازم له ، والشكل والهجاء والخط الحسن» .

والاهتمام بحسن الخط كان عادة جارية فى بلاد المغرب ، وهو يدل على تذوق الجمال ، والعناية بالكمال والإتقان . ولا ننسى أن المسلمين كرهوا بل حرموا تصوير ذى الروح لما فيه من تشبيه بالوثنية ، ولهذا السبب اتجه الروح الفنى عندهم إلى الزخرفة الهندسية ، والبراعة فى رسم الخط على أشكال مختلفة جميلة . والآيات القرآنية المسطورة على جدران المساجد شاهد على الإبداع فى الفن . لهذا حلت العناية بحسن الخط فى برامج الدراسة الإسلامية محل الرسم والتصوير عند غير المسلمين .

ويرى ابن خلدون أن حسن الخط يتصل بالحضارة ، ورداءته بالبداوة : «لذلك كان الخط العربى لأول الإسلام غير بالغ الغاية من الإحكام والإتقان

---

(١٤) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٣٠٦ طبعة محمود توفيق بالأزهر .

(١٥) تفسير الكشاف للزمخشرى .

والإجادة ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع » . ثم ترقت الخطوط لما استبحر الإسلام فى العمران . . «وكان الخط البغدادى معروف الرسم ، وتبعه الإفريقى ويقرب من أوضاع الخط الشرقى وتميز صنف الخط الأندلسى »(١٦) .

والإجادة فى الخط ، والحذق فى رسم الحروف طبقاً لقوانين وأشكال متعارفة ، مما يؤدى إلى ضبط القراءة والبعد عن التحريف . ولا تخفى أهمية ذلك فى قراءة القرآن خاصة ، لأن التبديل فى كلمات القرآن مما يأباه الدين وينهى عنه ، فإذا صارت الخطوط مائلة إلى الرداءة ، بعيدة عن الجودة «صارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة ، لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف »(١٧) .

وقال صاحب الإتقان : «يستحب كتابة المصحف وتحسين كتابته وتبينها وإيضاحها »(١٨) .

ونذكر لهذه المناسبة أن : «أهل المشرق لا يعلمون الصبيان الخط المكاتب بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد ، كما نتعلم سائر الصنائع . وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة »(١٩) .

من الطبيعى إذن أن ينص المنهج الإجبارى على تعليم القرآن والصلاة والدعاء والكتابة والنحو وبعض العربية ، فكلها ترمى إلى غاية واحدة هى معرفة الدين والعبادات مما هو مفروض على المسلمين كافة .

العلوم الاختيارية فى المنهج :

العلوم الاختيارية هى الحساب ، والشعر ، وأيام العرب وأخبارها ، وجميع النحو والعربية .

(١٦) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
(١٧) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٥ .
(١٨) الإتقان جـ ٢ ص ٢٨٩ .
(١٩) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٨ .

ومن الواضح أن هذه العلوم تختلف عن سابقتها فى بعدها عن الصفة الدينية ، وإذا كان بعض النحو والعربية مما يجب درسه ، فإن هذا البعض ضرورى لفهم الدين . أما جميع النحو وجميع العربية ، فما يعتبر خروجاً على الغاية الدينية إلى غاية أخرى .

ولذلك كره أحمد (وهو الإمام أحمد بن حنبل) التوسع فى معرفة اللغة وغريبها وأنكر على أبى عبيدة توسيعه فى ذلك وقال : هو يشغل عما هو أهم منه[٢٠] .

وفى الحديث : «تعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا»[٢١] .

ومن الطبيعى الاقتصار فى المنهج على قدر من العلوم دون الآخر ، واختيار علوم معينة وإهمال باقى العلوم ، إذ لا يخفى أن الأمم التى تضرب فى الحضارة وترتفع فى المدنية . تتعدد عندها المعارف والصنائع ، ولا يستطيع الفرد الواحد الإحاطة بها جميعاً . واختيار المنهج المناسب للطفل من بين هذا الحشد من المعرفة النظرية والعملية يتوقف على الغاية من التعليم ، وعلى حاجة المجتمع ، وعلى طبيعة الطفل .

ولكن المبدأ المسلم به عند جميع علماء التربية ، هو الاقتصار فى المنهج على بعض العلوم دون البعض الآخر .

قال المأمون يصف العلوم ويحث على التخصص : «ولو قلت إن العلم لا يدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصنافه ، ولا يضبط آخره ، فالأمر على ما قلت . فإذا كان الأمر كذلك فابدءوا بالأهم فالمهم ، وابدءوا بالفرض قبل النفل»[٢٢] .

وأهمية العلوم مسألة اعتبارية ، تتوقف على الغرض المنشود ، والمطالب الاجتماعية ونوع الإعداد المطلوب .

فعلم الملوك : النسب والخبر وجمل الفقه . وعلم التجار : الحساب والكتاب . وعلم أصحاب الحرب : درس كتب المغازى وكتب السير[٢٣] .

---

(٢٠) فضل علم السلف لابن رجب الحنبلى .　　(٢١) المرجع السابق .

(٢٢) البيان والتبيين – الجاحظ جـ ٣ ص ٢٢٢ .

(٢٣) البيان والتبيين – الجاحظ – جـ ٣ ص ٢٢٣ .

ولكن القابسى لا يريد أن يعلم ملوكاً أو تجاراً ، أو قادة حرب وساسة دول ، إنما يريد أن يعلم أبناء المسلمين لينشأوا على الإسلام ، ولا يعنيه ماذا يصيرون فيما بعد .

فالمنهج الذى يذكره يخص جميع الصبيان فى السن التى تسبق التخصص ، سواء استكمل الصبى التعليم ، أم انقطع عنه وتوجه إلى احتراف صناعة يكسب منها معاشه .

وقد يتطرق إلى الذهن أن تعليم الحساب لا صلة له بالدين . فعلماء التربية فى العصر الحاضر ينصون على تعليم الحساب ، إما لفائدته العملية فى الحياة ، وإما لقيمته فى التدريب على التفكير الصحيح ، لأن الرياضة علم العلاقات الضرورية المضبوطة .

أما فقهاء المسلمين فقد نظروا إلى الحساب من وجهة نظر دينية ، وعندهم أن الحساب فرض كفاية ، فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها ، وأما ما يعد فضيلة لا فريضة : «فالتعمق فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه»(٢٤) .

ويذهب ابن رجب البغدادى مذهب الغزالى فيقول : «كذلك الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به قسمة الفرائض والوصايا والأموال التى تقسم بين المستحقين لها . والزائد على ذلك مما لا ينتفع به إلا فى مجرد رياضة الأذهان وصقلها لا حاجة إليه ، ويشغل عما هو أهم منه»(٢٥) .

فالغزالى وغيره يرون فى معرفة الحساب مصلحة دينية . أما الجاحظ فإنه يرمى من معرفته إلى النفع الاجتماعى وضبط الحضارة والعمران ، وفى ذلك يقول : «وأما القول فى العقد وهو الحساب دون اللفظ والخط ، فالدليل على فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر

---

(٢٤) الإحياء للغزالى جـ ١ ص ١٥ .

(٢٥) فضل علم السلف على الخلف .

نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة . وفى عدم اللفظ ، وفساد الخط ، والجهل بالعقد فساد جل النعم ، وفقدان جمهور المنافع ، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواماً ومصلحة ونظاماً»[٢٦] .

ولا ندرى أأراد القابسى من تعليم الحساب المصلحة الدينية أم الاجتماعية أم كليهما معاً . وأكبر الظن أنه يرمى إلى نفع الحساب فى كمال المعرفة الدينية الصحيحة على مذهب الفقهاء وهو فى ذلك يقول : «ينبغى أن يعلمهم (أى المعلم) الحساب ، وليس ذلك بلازم له ، إلا أن يشترط عليه» ٤٤ – ا .

وهذا يؤيد وجهة نظرنا القائلة بأن الغرض من تعليم الحساب عند القابسى هو المصلحة الدينية لا الاجتماعية . ولو كان الأمر غير ذلك لألزم تعليمه على الإطلاق ، دون التعليق بشرط رضا الآباء .

وتعليم الشعر موضع جدل بين الفقهاء . وقد عرّض القابسى هذا الجدل بين الأنصار والمعارضين ، ثم رجح تعليمه على وجه الاختيار فالك وسحنون يأبيان تعليم الشعر بالأجر إذا لم يكن القصد تعليم القرآن والكتابة . وابن حبيب لا يرى بتعليم الشعر بأساً إلا أنه يكره من الشعر : «ما فيه ذكر الحمية والخنا أو قبح الهجاء» .

وقد اعتمد القابسى فى تعليم الشعر على أحاديث للرسول ، منها : «إنما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح» ، ومنها : «إن من الشعر لحكمة» . وقد شك القابسى فى رواية الحديث الأول ، ثم أثبت حديثاً لم يشك فى نسبته إلى النبى ، وهو : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً» ، وقد فسر القابسى هذا الحديث بأن يكون الشعر غالباً على الإنسان حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن .

ومن الفوائد التى يجنيها من يحفظ شيئاً من الشعر أنه : «يقيم لسانه ويفصحه ويأنس إليه فى بعض الأوقات ، ويستشهد به فيما يريد بيانه» ٥٤ – ب .

---

(٢٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ٨١ .

وقد عابوا على العرب إهمال الفنون فى مناهج التعليم ، وها نحن أولاء نرى القابسى يطلب تعليم الشعر ، وهو لون من ألوان الفن ، ولم يغب عن نظر القابسى قيمة الشعر الفنية وأثرها فى النفس الإنسانية . ذلك أن الإحساس بالجمال ، وتذوق الفن ، من عوامل الراحة النفسية ، أو الأنس على حد قول القابسى . وقد رأينا هذه النزعة المتجهة نحو الفنون الجميلة بادية فى العناية بحسن الخط ، ونحن نراها الآن فى تعليم الشعر ، وهو نوع من الأدب ، وفرع من الفن .

وقد دار مثل هذا الجدل فى العصر الحاضر حول قيمة الفن فى التعليم ، وفى الحياة . وهل الأهم العلوم الطبيعية أو الأدبية أو الفنية ، وأثر كل ذلك فى تربية الأطفال .

ويرى دوركهيم[٢٧] أن حب الفنون الجميلة وتذوق الجمال ، مما يؤدى إلى تحرر المرء من نفسه ، فيخف عنه عبء الحياة . فالفن سبيل إلى الراحة النفسية لأنه يخفى عن العين مشاغل الحياة اليومية .

ولكن ميدان الفن هو الخيال لا الحقيقة . وجمال الآثار الفنية مستمد من إحساس الفنان لا من حقائق الأشياء . ولذة الفن ناشئة عن تأثيره فى الخيال لا فى الحواس والعقل . ويحرك الفن الخيال إلى العمل ، والخيال أكثر العمليات النفسية مرونة وأقلها جموداً . لهذا كان ميدان الفن بعيداً عن عالم الحقيقة مع أن عالم الأخلاق هو الحقيقة نفسها . وهنا ينتهى دوركهيم إلى هذه النتيجة وهى أن الفن والأدب لا يصلحان أساساً للسلوك والعمل .

وقد انتهى سبنسر إلى هذه النتيجة نفسها ، ولهذا يجعل أساسا السلوك فى الحياة تعليم العلوم الطبيعية ، لأنها تعرفنا حقائق الأشياء على الوجه الصحيح[٢٨] .

وقد أشار القرآن إلى ابتعاد الشعر عن عالم الحقيقة قائلاً : «والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون» .

ومع ذلك فالتمييز الحاد بين الفن والعلم ، والحقيقة والخيال «فيه كثير من

---

(٢٧) Durkheim. L'Education Morale.

(٢٨) Spencer. Education.

الافتعال ، لأن الحقيقة والخيال قطعة واحدة فى عقل الإنسان ؛ والفن جهد للتعبير بطريقته الخاصة عن أغوار الحقيقة وما فيها من أعماق »(٢٩).

وقديماً وحد أفلاطون بين الحق والخير والجمال فى المثال الأول .

وقد كان الغرض الأول الذى يرمى إليه القابسى هو تهيئة الأطفال إلى معرفة الخير أولاً وقبل كل شيء . وذلك عن طريق الفن ، ولا بأس عنده بقدر من الفن الجميل إذا كان هذا القدر لا يتعارض مع معرفة الخير والعمل به .

ولهذا لم يقف القابسى فى سبيل تعليم الشعر ، بل نصح منه بمقدار.

ومن العلوم الاختيارية التى لا يرى القابسى ما يمنع تعليمها : «أيام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال وذوى المروءات» ٤٤ — ب .

هذه المادة تعرف فى المناهج الحديثة بعلم التاريخ السياسى .

وبعض علماء التربية يقدمون علم التاريخ فى الأهمية بالنسبة للطفل على العلوم الطبيعية ، لأنه أكثر مساساً بمشاعر الأطفال ، وألصق بخيالهم ، وأنفع فى المعرفة بالماضى وما له من صلة وثيقة بالحاضر.

والطفل جزء من الحياة يتحرك فى العالم الخارجى المحيط به ، وسلوكه فى هذا العالم استجابة للمؤثرات الخارجية ، وهذه الاستجابة نتيجة فهم العالم وإدراك الأشياء . والعالم الخارجى بالنسبة إلى الطفل هو عالم الأشياء وعالم الإنسان .ولابد لمن يعيش فى هذه الحياة من إدراك الأشياء وحقائقها ، ومعرفة الإنسان وطبائعه .

روسو وسبنسر وغيرهما ممن يبدءون بتعليم الأطفال العلوم الطبيعية يجعلون تاريخ الإنسان فى المحل الثانى .

فدراسة التاريخ على أى الحالات من العلوم اللازمة لتثقيف الطفل .

والقابسى يريد من تعليم التاريخ أن يكون محركاً لهمم الأطفال نحو أعمال البطولة ، وباعثاً لهم على أفعال الخير . والغرض من علم الرجال التشبه بالأبطال . والتشبه بالرجال من الكمال . والغاية من سير ذوى المروءات القدوة فى السبق إلى الخيرات .

(٢٩) Albert Mallot. Les Grandes Tendances de La Pedagogie Moderne. p. 130.

والمحاكاة فطرة نفسية تدفع الأطفال إلى تقليد الأعمال من غير قصد أو شعور.

وذكر الإنبابي : «أن يتعلم الطفل القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم ، لينغرس فى نفسه حب الصالحين» . وهذا المؤلف يقصر فائدة التاريخ على ناحية واحدة هى ناحية الصلاح والخير.

وتعليم السير وحكايات الأبرار وأيام العرب وأخبارها ، زيادة فضل على ما جاء فى القرآن من قصص الأمم السالفة وأخبار الأولين ، ففيه من تاريخ الغابرين الشيء الكثير وقصص القرآن يرمى إلى غاية دينية وخلقية ، فالظلم والفساد مما يؤدى إلى الهلاك ، والله هو الذى يصب على المفسدين أسواط العذاب ، إن ربك لبالمرصاد .

نقد منهج القابسى :

إذا نظرنا إلى المنهج الذى وضعه القابسى فى ضوء التربية الحديثة ، أخذنا عليه أمرين : الأول أنه يغفل نفسية الطفل ومراعاة مراحل نموه ، والثانى إهمال العلوم الطبيعية والرياضة البدنية .

ولا يعاب القابسى إذا كان قد أغفل اعتبار الحياة النفسية للأطفال ، فهو عيب العصر كله فى الشرق والغرب . ذلك أن علم النفس الحديث لم يتحرر من الفلسفة إلا فى عصر متأخر جدًّا ، فقد انصرف العلماء إلى البحث عن النفس لا عن مظاهرها ، ولم يعنوا بتقييد الأحوال النفسية تقييداً كاملاً صحيحاً يكون أساساً لتفسير سلوك الإنسان . وإلى جانب ذلك أخطأ جميع الأقدمين فى نظرهم إلى الأطفال نظرهم إلى الكبار . ويرجع الفضل فى تصحيح الموقف من الطفل ، وبيان أن حياته النفسية تختلف عن حياة البالغين إلى روسو فى القرن الثامن عشر ، ويعتبر كتابه إميل نقطة التحول فى التربية الحديثة .

ومع ذلك فاحترام ميول الطفل ونزعاته عند وضع المنهج الدراسى ، مما يصعب تنفيذه ، فالطفل إلى سن السادسة بل السابعة يميل إلى اللعب والحركة ، فهل نتركه فى لهوه الحر لا نعلمه القراءة والكتابة ؟ ومَنْ مِنَ الأطفال يحب التقيد أمام الألواح والأوراق ليخط الحروف ويركب الكلمات ؟ فالمجتمع يريد من الطفل حين يكبر أن

يكون قد تعلم الكتابة حتى يفرغ إلى معرفة باقى العلوم التى اتسعت دائرتها إلى حد كبير مع تقدم الحضارة السريع .

أما القول بتعليم الأطفال الكتابة والقراءة عن طريق اللعب والتشويق كما هو الحال فى رياض الأطفال ، فهو قول ينصب على الطريقة لا على المنهج الدراسى .

ومهما يكن من شىء فالطفل لا يدرك ، ولا يستطيع أن يعرف قيمة هذه العلوم المختلفة التى يلقنها ، حتى نقول إن قيمة الشىء هى التى تجتذبه إلى الإقبال عليه بالرغم من تعارضها مع ميوله . فهو إذن يدرس العلوم المختلفة برغم أنفه .

إننا نقدم العلوم إلى الطفل كما نقدم إليه الدواء ، فهو لا يحب الدواء ولا يدرك نفعه فى الشفاء ، وقيمته فى جلب الصحة والعافية ، وإنما يدرك شيئاً واحداً هو أنه لا يميل إلى الدواء ولا يريد تناوله . ويصطنع الآباء الحيلة فى تقديم الدواء ، بدسه مع الحاوى ، أو الوعد بعمل شىء مما يميل إليه الطفل ، أو إرغامه فى آخر الأمر على شرب الدواء بالعنف .

ورياض الأطفال كالحلوى من الدواء .

فالطفل يريد شيئاً ، والمجتمع يريد له شيئاً آخر . والمجتمع هو الذى ينتصر آخر الأمر ، فيهيئ للطفل ما ينبغى أن يتعلمه ، والدليل على ذلك اختلاف المناهج باختلاف الأمم .

وكانت إرادة المجتمع فى عصر القابسى أن يتعلم الطفل القرآن وما يمت إلى القرآن ! بصلة ، وكم يفرح الأب عندما يختم ابنه القرآن ، فيقدم إلى معلم الكتّاب الهدايا جزاء الختمة ، حتى لقد أصبح أجر الختمة واجباً على الآباء . فالآباء أنفسهم ، أو الشعب على الاصطلاح الحديث ، كان يطالب بتعليم القرآن ، ولا يغتفر التهاون فى ذلك .

ولم يكن تعليم القرآن رأى الشعب ونصيحة الفقهاء من علماء التربية فحسب ، وإنما كان رأى الفلاسفة أيضاً . فهذا ابن سينا يقول : «فإذا اشتدت مفاصل الصبى ، واستوى لسانه ، وتهيأ للتلقين ، أخذ فى تعلم القرآن وصوّر له حروف الهجاء ، ولقن معالم الدين ، وإذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة

نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقه»[٣٠]

وليس لنا أن نعجب من رأى ابن سينا فهو القائل فى سيرة حياته : إنه ختم القرآن ، وأتى على كثير من الأدب ، وهو ابن عشر سنين .

ولم تبدأ دراسة العلوم الطبيعية إلا من عصر النهضة ، وقد درج الأقدمون على احتقار الصناعة لأنها مخصوصة بالعبيد ، أما الأشراف فلا يليق بهم إلا الاشتغال بالأعمال العقلية . كانت الحال كذلك عند اليونان كما كانت عند العرب . ثم إن تجارب المعامل وهى الأساس فى كشف العلوم الطبيعية كانت تحوطها الأسرار ويغمرها السحر والشعوذة ، ويهاجمها الجمهور باعتبار أن أصحابها يشتغلون بالكيمياء مما يرادف السحر فى ذلك الزمان . لهذا انصرف العلماء عن البحوث التجريبية خشية التعرض لغضب الجمهور ، واحتقار المجتمع ، وامتهان الكرامة الشخصية .

وظهر بيكون فى القرن السابع عشر فشق طريق التجريب أمام العلماء ، ووصف طريقة الاستقراء ، ونصح بالنظر فى كتاب الطبيعة . ونادى روسو بنفس المبدأ وهو القراءة فى كتاب الطبيعة المفتوح لا فى بطون الكتب المحبرة على الأوراق .

وهذه دعوى جديدة تطالب أولاً بمعرفة الأشياء الخارجية المحيطة بالإنسان أو عالم الطبيعة ، وتطالب ثانياً أن تكون الطريقة لهذه المشاهدة والاستقراء والتجريب .

ثم استقرت المناهج الحديثة وعلى رأسها دراسة العلوم الطبيعية .

هذا التحول فى المناهج ناشئ عن التطور الذى لحق المجتمع ، وأهم ما يمتاز به هذا التحول الانصراف إلى عالم المادة ، والنظر فى سفر الطبيعة ، لتسخير القوى الكامنة فى أرجاء الأرض لمصلحة الإنسان .

ولم ينه القرآن عن النظر إلى الطبيعة ، بل حث الإنسان على التأمل فى المخلوقات فى أكثر من آية ، حتى يصل الإنسان من معرفة أمور الطبيعة إلى عظمة الخالق ووجوده . ولكن المسلمين لشدة غيرتهم على الدين ، وخوفهم من التحول عنه ،

(٣٠) كتاب السياسة لابن سينا ص ١٣ ، ١٤ .

وجدوا من السلامة الابتعاد عن البحث فى الطبيعة حتى لا يصرفهم ذلك عن الإيمان والعبادة .

ومن الذين هاجموا العلوم الطبيعية هجوماً عنيفاً ، وصرفوا الناس عن دراستها الغزالى ، للعلة التى ذكرناها ؛ قال : «الطبيعيات بعضها مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد فى أقسام العلوم . وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وهو شبيه بنظر الأطباء .. وأما علومهم فى الطبيعيات فلا حاجة إليها . فإذن الكلام كان من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية ، حراسة لقلوب العوام عن تخييلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع[٣١] » .

فإذا كان القابسى لم يوجه الاهتمام إلى العلوم الطبيعية بل أهملها الإهمال التام ، فذلك لأن حفظ القرآن وتعلم الكتابة والنحو والعربية يستغرق كل وقت الصبيان فلا يتسع بعد ذلك لأى نوع من الدراسة . يضاف إلى ذلك أن الفقهاء كانوا ينظرون بعين الريبة إلى العلوم الطبيعية . والجمهور على هذا الرأى أيضاً .

فإذا التمسنا العذر فى نقص المنهج من درس الطبيعة . فلا عذر عن التخلف بالاهتمام بالرياضة البدنية . وإننا لنجد السلف فى صدر الإسلام يعنون بألوان الرياضة التى تطبع الأطفال على الحركة وتبعث فيهم القوة والحياة والصحة والنصائح كثيرة تدعو إلى الاهتمام بالرماية والسباحة وركوب الخيل .

وإهمال مثل هذا التدريب فى الكتاتيب يرجع إلى أسباب : منها أن معلم الكتاب فقيه تخصص فى العلوم الدينية . ويعمل على تحفيظ الصبيان القرآن والكتابة وليست صناعته الرماية والسباحة .

ولا يخفى أن الكُتَّاب كان مكاناً متواضعاً لا يزيد على حجرة أو حانوت فى دار ، يجلس للتعليم فيه معلم واحد فى الغالب . فلم تكن هناك مدرسة خاصة ، ذات بناء مما تمتاز به المدارس ، وفيها فناء يلعب فيه الصبيان ويتسع لهذه الحركات الرياضية المطلوب تعلمها .

---

(٣١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٠

وكانت الغاية القصوى من طلب العلم معرفة الله ، والتطبع على الدين القويم والأخلاق الفاضلة ، فصرفت الغاية الدينية أنظار الفقهاء عن الغايات الدنيوية .

وصحة الأبدان لازمة على كل حال ، ولكن الرياضة البدنية لا ترمى إلى صحة البدن فحسب بل إلى قوته وجماله ورشاقته ، وهذه الغايات مما لا يدخل عند الفقهاء فى حساب .

اليوم المدرسى والأسبوع الدراسى :

أحوال الدراسة فى الكتاتيب ، واختيار الصبيان ، وتوزيع المنهج على اليوم المدرسى وبطالة الصبيان ، كل ذلك مستمد من الغاية من التعليم ، وطبيعة المنهج ، والحالة الاجتماعية .

فالأسبوع الدراسى يبدأ فى صباح السبت ، وينتهى فى عصر الخميس . وبذلك يكون يوم الجمعة بطوله من أيام العطلة . «فدراسة الصبيان أحزابهم وعرضهم إياه على معلميهم فى عشى الأربعاء وغدو الخميس إلى وقت الكتابة . والتخاير إلى قبل انقلابهم نصف النهار ، ثم يعودون بعد صلاة الظهر إلى الكتاب ، والخيار إلى العصر ، ثم ينصرفون إلى يوم السبت يبكرون فيه إلى معلميهم » ٦٠ — ب .

من هنا يتضح أن القابسى كان يعتبر الأسبوع وحدة تعليم ، راقب فيها المعلم أعمال الصبيان ، ويقف عند آخر الأسبوع وقفة قصيرة ليرى مبلغ ما حصلوا .

ويدرس الصبى خلال هذا الأسبوع القرآن والكتابة وسائر العلوم الأخرى المذكورة فى المنهج .

وتوزيع هذه العلوم على اليوم المدرسى يجرى كالنظام الآتى :

١ — يدرس الصبيان القرآن من أول النهار فى وقت مبكر حتى الضحى .

٢ — يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر .

٣ — ينصرف الصبيان إلى بيوتهم لتناول الغذاء ويعودون بعد صلاة الظهر .

٤ — تدرس بقية العلوم كالنحو والعربية والشعر وأيام العرب والحساب ، من بعد الظهر إلى آخر النهار .

فأول شيء يبدأ الصبي بدراسته القرآن ، لأنه أهم العلوم ، وأكثرها قيمة فى المنهج ، وهو المقصود من التعليم .

وكانت العادة أن ينصرف الصبيان إلى بيوتهم لتناول الغداء ، ذلك أن الكتّاب مكان متواضع لا يشبه مدارس الدول الحديثة التى تقوم بالإنفاق على التعليم ، وتنشئ أبنية مخصوصة للمدارس مجهزة بالمطاعم ، وتعنى بإطعام التلاميذ .

والغالب أن الكتّاب كان يقع قريباً من بيوت الصبيان ، حيث كانت المدن صغيرة الحجم لا تبلغ من الاتساع ما هى عليه الآن .

وقد أوصى القابسى المعلمين بعدم حرمان الصبى الانصراف إلى بيته لتناول الطعام ، مع التنبيه عليه بسرعة العودة ، ونستطيع اعتبار فترة الظهر راحة من التعليم .

وبطالة يوم الجمعة الغرض منها راحة الصبيان ، ويوم الجمعة مُعَظم عند المسلمين كما جرت به العادة .

وبطالة الأعياد تجرى حسب العرف أيضاً ، فقد تكون يوماً واحداً فى عيد الفطر ، وقد تبلغ ثلاثة أيام فى عيد الأضحى ، وقد تصل إلى خمسة . وكذلك الشأن فى باقى الأعياد التى اصطلح الناس على البطالة فيها .

ويؤذن فى بطالة الصبيان من أجل الختم يوماً أو بعض يوم ، إجلالاً لهذا الحادث المبارك فى تاريخ الصبى ، حيث يصبح بعده من حملة كتاب الله .

وقد نبه الفقهاء إلى وجوب الراحة فى التعليم وأثر ذلك فى الصبى ، كما قال الإنبابى «وإلا كان متسبباً فى موت قلبه وإبطال ذكائه ، وتنغيص عيشه حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأساً»[٣٢] .

والتربية الحديثة تهتم بأوقات الراحة . ولكن هذه الأوقات ومدتها وموضعها من اليوم المدرسى تستند إلى التجارب العلمية التى أجريت على التعب فى علم النفس .

---

(٣٢) الإنبابى ص ٤ .

الفصل بين الذكور والإناث فى التعليم :

وقد اقتصرت الكتاتيب على الذكور دون الإناث وفى ذلك يقول سحنون : «أكره للمعلم أن يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن» ٥٧ – ا .

وهذه القضية قديمة وحديثة . وقد استقر الرأى الآن فى دول الغرب بعد البحث الطويل والمشاهدات الاجتماعية المستندة إلى الواقع على الجمع بين الجنسين فى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، ثم الفصل بينهما فى مرحلة التعليم الثانوى ، ويعود الاختلاط فى الجامعة .

ومرحلة التعليم الابتدائى تصل إلى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة أى قبل البلوغ ، خصوصاً فى دول الغرب التى تتأخر فيها سن البلوغ لبرودة الجو والفصل بين الجنسين بعد هذه المرحلة فى العصر الحديث الذى بلغت فيه حرية المرأة حدًّا لم تصل إليه من قبل ، يدل على ما يتم بينهما من فساد إذا تركت الصلة بينهما مطلقة من غير رقابة .

وفى عصر القابسى كان بعض الصبيان يستمرون فى الكتّاب إلى سن الاحتلام ، ولهذا خشى على الإناث الفساد .

ولم يكن هذا الخوف مقصوراً على إفساد الإناث مما دعا إلى إبعادهن من الكتاب ، بل شمل الخوف الغلمان أيضاً ، ولهذا نص على الحذر من إفساد الغلمان بعضهم بعضاً : «إذا كان فيهم من يناهز الاحتلام» ٥٧ – ا ، مما يخشى معه الفساد .

وقد أشار القابسى إلى الرذائل الجنسية إشارة خاطفة دون التعمق فى وصف العلاج الواجب فى مثل هذه الأحوال ، تاركاً للمعلم حرية التصرف بحكمته وطريقته الخاصة فى معالجتها .

على أن النهى عن تعليم البنت فى الكتاب لا يعنى أنها لا تتعلم . فقد ألزم القابسى من قبل تعليمها لضرورة معرفتها الدين والعبادات . وقد جرت العادة على تعليم البنات داخل الدور . والنساء الكاتبات والشاعرات اللاتى نجد ذكرهن فى

كتب الأدب أكبر دليل على انتشار التعليم بين النساء . فالعلة فى منع البنات على الذهاب إلى الكتاتيب ترجع إلى الغيرة على الأخلاق وحفظ الدين .

النهى عن تعليم غير المسلمين فى الكتاتيب الإسلامية :

ومما يلفت النظر على عدم تعليم أبناء النصارى فى الكتاتيب ، وكذلك تعليم أبناء المسلمين فى المدارس النصرانية . فقد كره مالك أن يطرح المسلم ولده فى كتاب النصارى ، ووافقه فى ذلك ابن وهب وسحنون وابن حبيب . سئل مالك : « هل يعلم المسلم النصرانى ؟ فقال : لا . وقال : لا أرى أن يترك أحد من اليهود أو النصارى يعلم المسلمين القرآن » ٤٧ — ب .

وتعليل القابسى لذلك يرجع إلى الآية الكريمة « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » . فالكافر نجس ، ولذلك ينهون أن يعلموا الخط العربى والهجاء حتى لا يمسوا المصحف ٤٨ — ا .

هذه هى القاعدة الفقهية التى حكم بها مالك وأعلام مذهبه من بعده ، وتبعهم القابسى على هذا الرأى وهو تحريم تعليم النصارى فى كتاتيب المسلمين ، وتحريم تعليم أبناء المسلمين فى كتاتيب النصارى .

وليس لنا أن نعجب لهذين الحكمين ، إذا أنزلنا الروح الدينى الذى كان مسيطراً على المجتمع فى ذلك العصر منزلة الاعتبار . فقد كان الدين شديد السلطان على النفوس ، والقرآن محترماً احتراماً شديداً .

ونحن إذا رجعنا إلى المسلمين الأوائل نجد أن النبى هو الذى افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة ، وهؤلاء الذين افتدوا أنفسهم بالتعليم من المشركين . وإذن فالنبى نفسه لم ير بتعليم المشركين أبناء المسلمين بأساً لحاجته إلى نشر الكتابة . ولما استقر الإسلام ، ودخل الفرس والروم تحت راية المسلمين ، لم يتحولوا إلى الإسلام دفعة واحدة . والمعروف أن كثيراً من المفكرين فى صدر الإسلام أسلموا فى الظاهر ، وكانوا يحملون فى باطن أنفسهم عقائدهم السالفة . وبعضهم ظل على النصرانية أو اليهودية أو المجوسية ؛ وهؤلاء عرفوا القرآن ومنهم من كان يحفظه ،

والمؤكد أنهم عرفوا الخط العربى واللغة العربية ، خصوصاً عندما تم تعريب الأعاجم فى آخر الدولة الأموية .

فما لا شك فيه أن المسلمين فى القرنين الأول والثانى كانوا يقومون بتعليم هؤلاء القوم القرآن والكتابة فى سبيل الدعوة الإسلامية ، التى لا يمكن أن تتم إلا بالتعليم والتعلم .

والظاهر أن الدعوة لنشر الإسلام ركدت بعد القرن الثانى ، واكتفى المسلمون بما وصلوا إليه من فتوحات ، وما صحبها من انتشار الدين ، ثم انعكفوا على تثبيت العقائد من الزيغ والزندقة ، التى حاول اليهود على الخصوص أن يدسوها على المسلمين .

لهذا وجد الفقهاء من السلامة أن يقفوا فى وجه النصارى واليهود ، وأن يقيموا بينهم وبين الإسلام سداً منيعاً يحول دون النيل منه بشر أو سوء ، أو تغيير وتبديل ، أو تحريف وتحويل .

هذا الموقف الجديد يختلف عن موقف المسلمين فى صدر الإسلام فى صدر الإسلام ، فهو موقف دفاع لا موقف هجوم . ذلك أنه بعد أن اقتحم المسلمون الأوائل قلوب النصارى وغزوا عقائدهم ، واجتذبوا عقولهم ونفوسهم إلى الإسلام ، إذا بالمسلمين فى القرن الثالث والرابع يقفون موقف الدفاع عن أنفسهم وأبنائهم من هجمات النصارى واليهود وطعناتهم المسددة إلى العقائد الإسلامية .

واستمرت حالة المسلمين فى هذا الموقف الدفاعى العاجز حتى العصر الحاضر ، إذ بدأ الأزهر فى مصر – وهو قلب الإسلام النابض – ينفض عن نفسه غبار الضعف ، ويزيل آثار الضعة والخوف ، وأخذ يشق الطريق من جديد لينشر الإسلام فى دول بعيدة أشد البعد عن مصر كاليابان ، وأرسل البعوث الأزهرية إلى شتى الدول التى تحتاج إلى أنوار الدين منافساً فى ذلك المسيحية .

ودار البحث فى ترجمة معانى القرآن . وترجم القرآن فعلاً إلى كثير من اللغات الأجنبية ، وهى ترجمات موجودة بين أيدينا ، على الرغم من عدم اعتراف بعض المسلمين بها .

ثم كان من أهم آثار النهضة الأوربية الحديثة أن اهتم الغربيون بدرس العلوم الإسلامية فظهر المستشرقون ، وألفوا الكتب الحديثة فى شتى المعارف الإسلامية ، ومنهم من يختص فى علوم قرآنية صميمة كالقراءات والتفسير «وهؤلاء المستشرقون على الديانة النصرانية أو اليهودية ؛ ومع ذلك فهم يمسون المصاحف ، ويدرسونها ويتعمقون فى بحثها ، وينشرون خلاصة أبحاثهم على العالم ، ويستقى الشرقيون من هذه البحوث ويأخذون منها فى علمهم .

ولكننا لا نقول اليوم إن الكافر نجس لا ينبغى أن يعلم الخط العربى والهجاء حتى لا يمس المصحف كما يقول القابسى .

وتفسير هذا التحول الذى يذهب إلى النقيض يرجع إلى اختلاف الروح الاجتماعى ، فالمجتمع الإسلامى الحاضر لا ينظر إلى غير المسلمين ، كما كان ينظر إليهم القدماء .

الاستظهار :

الطريقة فى تعليم المنهج السابق لابد أن تعتمد على الحفظ والاستظهار ، وتعرف هذه الطريقة فى علم التربية الحديثة بالتعليم اللفظى «وهذه الطريقة تختلف عن التعليم التجريبى المعتمد على التجارب والمشاهدات ، كما هى الحال فى دروس العلوم الطبيعية ، أو التعليم المهنى ، الذى يوجه التلاميذ إلى تعلم الصناعات المختلفة .

ولم يكن معلم الكتّاب مخصوصاً بتعليم المهن أو درس الطبيعة .

وإنما كانت وظيفة المعلم القيام بتعليم القرآن والكتابة والنحو والعربية والشعر والحساب وأيام العرب . وهذه كلها علوم لفظية ، يقرأ التلاميذ ألفاظها ويسمعونها من المعلم . وعليهم استيعابها وحفظها .

فالمنهج بطبيعته يتجه إلى التعليم اللفظى ، ويعتمد على الذاكرة ، على الأخص إذا عرفنا أن القرآن وهو أهم العلوم يجب حفظه بألفاظه دون تحريف أو تبديل . لهذا السبب كانت الطرق التعليمية التى أوصى بها القابسى لا تخرج عن الطرق الموصلة

إلى جودة الحفظ ، وعدم النسيان فيما يختص بالقرآن .

وعنده أن طرق الحفظ ثلاث : التكرار والميل والفهم .

وقد جاء ذكر التكرار فى حديث عن الرسول يختص بحفظ القرآن . قال : «مثل القرآن كمثل الإبل المعقلة ، إذا عاهد صاحبها على عقلها أمسكها ، وإذا أطلقها ذهبت . إذا قام صاحب القرآن بالليل والنهار ذكره ، وإذا لم يقرأه نسيه» . ويعلق القابسى على هذا الحديث قائلاً : «وقد بين فى هذا الحديث كيفية المعاهدة التى يثبت بها حفظ القرآن ويقوى على الحفظ حتى لا يتلعثم فيه» ٢١ - ب .

والقابسى يذكر هنا مراحل الذاكرة الثلاث الأساسية وهى : الحفظ والوعى والاسترجاع . وما نصطلح على تسميته الآن الوعى يطلق عليه التثبيت ، وسهولة الاسترجاع هى عدم التلعثم .

والميل هنا هو محبة القرآن ، فيؤدى إلى الإقبال على تلاوته ، وعدم الانصراف عنه إلى شىء آخر ، بل يكون القرآن شاغلاً للذهن على الدوام . «قال معاذ ابن جبل لأبى موسى الأشعرى : كيف تقرأ القرآن ؟ . قائماً وقاعداً ، وعلى راحلتى ، وأتفوقه تفوقاً» ٢٢ - ب .

أما الفهم فناشئ عن الترتيل . وقد فسر القابسى معنى قوله تعالى : «أشد وطئاً» . . . أى مواطأة للقرآن بسمعك وبصرك أى فهمك . وقال فى فائدة الترتيل : «إن الترتيل فى القراءة يحيى الفهم للعالم فيستعين به على التدبر الذى له أنزل القرآن» .

ويرى الفقهاء الذين ألفوا فى علوم القرآن هذا الرأى من النصح بقراءة التحقيق والترتيل لفائدتها فى التعليم . فالتحقيق فى القراءة : «يكون لرياضة الألسن وتقويم الألفاظ ويستحب الأخذ به على المتعلمين» وذكر بعضهم : «أن التحقيق يكون للرياضة والتعليم والتمرين ، والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط»[٣٣] .

وفى البرهان للزركشى : «كمال الترتيل تفخيم ألفاظه ، والإبانة عن حروفه وألا يدغم حرف فى حرف ، وقيل أقله ، وأكمله أن يقرأه على منازله فإن قرأ

---

(٣٣) الإتقان للسيوطى ج ١ ص ١٧٢ .

تهديداً لفظ به لفظ للتهديد ، أو تعظيماً به لفظ التعظيم»[٣٤].

«وقالوا إن قراءة التدبر والتفهم هى المقصود الأعظم والمطلوب الأهم . وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر فى معنى ما يلفظ به فيعرف كل آية . ويتأمل الأوامر والنواهى ، ويعتقد قبول ذلك»[٣٥].

فالإجماع على قراءة القرآن بالترتيل حسب أمر الله وسنة الرسول ، مما يدعو دون شك إلى الفهم . وقد أيدت التجارب الحديثة فى علم النفس أن الحفظ مع الفهم أسرع وأثبت ، وأدعى إلى عدم النسيان ، وأقوى على الاسترجاع .

وكانوا ينصحون المتعلمين بهذه الطريقة .

ونحن لا ندرى هل يستطيع الصبى الصغير أن يفهم معانى القرآن وأوامره ونواهيه ، وما جاء فيه من وعد ووعيد ، ودعاء وتضرع ، وطلب وتعوذ واستغفار ؛ إذ لا شك أن هذه المعانى أعلى من مستوى عقول الصبيان ، مما دعا أبا بكر ابن العربى إلى النصيحة بتأخير حفظ القرآن إلى سن متأخرة ، ووافقه ابن خلدون على هذه الطريقة ، ولكنه آثر اتباع التقاليد فأوصى مع العرف بالبدء بتعليم القرآن .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الإعراب من دواعى فهم المعنى ، وكذلك الهجاء والكتابة . وكانت الطريقة هى حفظ السورة بإعرابها وحسن قراءتها ، مع الترتيل المؤدى إلى التدبر والتفكر . وهذا كله ينتهى دون شك إلى كمال الفهم .

ثم أضاف القابسى أنه : «من الاجتهاد للصبى ألا ينقله من سورة حتى يحفظها بإعرابها وكتابتها» ٥٩ — ا .

ولا يفوتنا أن نذكر أن وسائل الحفظ مع الاستفادة من جميع الحواس أفضل من استعمال حاسة واحدة ، على الأخص إذا عرفنا أن بعض الناس بصريون وبعضهم سمعيون وبعضهم حركيون . فهناك من يحفظ عن طريق البصر بالقراءة الظاهرة الصامتة ؛ وهناك من يستفيد عن طريق السمع بالقراءة جهراً بصوت عال ، وهناك من يستفيد بالحركة عن طريق الكتابة . وهذه الوسائل كلها كانت

---

(٣٤) الإتقان للسيوطى ج ١ ص ١٨٣ .

(٣٥) الإتقان السيوطى ج ١ ص ١٨٤ .

متبعة فى تعلم الصبيان ، فالعين تستفيد من القراءة ، واليد من الكتابة ، والأذن من الاستماع .

وكانت العادة أن يقرأ الصبيان أحزابهم وهم جماعة ، ويستمع المعلم إليهم ، وعليه أن يأخذ باله من كل واحد منهم ، لأن : «اجتماعهم فى القراءة يخفى عنه قوى الحفظ من الضعيف» ٦٩ — ا وإذا اتخذ الصبيان من هذه القراءة أداة اللهو والخفة ، فعليه أن يعالجهم باختيار كل واحد منهم على حدة ، فينصرفوا إلى الجد .

«والجهر أفضل لأنه يوقظ قلب القارئ ، ويجمع همه إلى الفكر ، ويصرف سمعه إليه ، ويطرد النوم ويزيد فى النشاط»[٣٦].

فإذا تعاونت هذه الوسائل كلها من التكرار والإقبال والفهم فلا شك أن يصل الصبى إلى حفظ القرآن . ولا علة له إذا نسى ، ولا علة لأحد فى نسيان القرآن بعد حفظه ، لأن هذا دليل على التشاغل عنه ، أو لأن صاحب القرآن : قد يغلب عليه عمل يصرفه عنه ، وإما لأنه يتعمد التشاغل عنه بعمل من أعمال الدنيا أو من أعمال السفهاء ، وعندئذ ينسيه الله القرآن : «عقوبة لاشتغاله بسوء الاكتساب ، ويؤيد ذلك ما جاء فى الحديث (مالأحدكم يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسى) معناه أن الله أنساه ما نسى» ١٩ — ب .

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى ما هو أبعد من ذلك فاعتبروا نسيان القرآن من الكبائر : «صرح به النووى فى الروضة وغيرها لحديث أبى داود (عرضت علىّ ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»[٣٧].

والاختبار هو الوسيلة التى يعرف بها المعلم أأجاد الصبى الحفظ أم لا .

وأول درجات الإجادة والامتياز أن : «يستظهر الصبى القرآن حفظاً من أوله إلى آخره ، مع ضبط الشكل والإعراب والفهم وحسن الخط» ٧٠ — ب .

ويقل عن هذا درجة من «يقرأ القرآن نظراً فى المصحف مع ضبط الشكل والهجاء» ٧١ — ا .

---

(٣٦) الإتقان ص ١٨٦ .

(٣٧) الإتقان ص ١٨١ .

وآخر درجات الإجادة أن : «أن يملى على الصبى فلا يتهجى ، ويرى الحروف فلا يضبطها ، ولا يستمر فى قراءتها» ٧١ - ب .

ومن الصبيان من يبلغ درجة البلاهة . ومقياس ذلك عند القابسى أن يختبر : «فوجد لذلك لا يحفظ ما عُلِّم ، ولا يضبط» ما فهم ٧٢ - ا .

ونحن نرى أن موازين الاختبار لا تعتمد على الذاكرة وحدها ، بل على الفهم أيضاً . فهى اختبار للذاكرة والذكاء معاً .

ولا يجب أن نأخذ الفهم الذى ذكره القابسى على أنه مرادف للذكاء ، بل هو يستند إلى الذاكرة ، لأن إعراب الكلمات ، ومعرفة المعانى القرآنية مما يتلقاه الصبيان من أفواه المعلمين ويحفظونه عنهم ، ولا يصلون إليه من تلقاء أنفسهم .

ومن هنا يتضح لنا أن التربية العقلية عند القابسى تنتهى إلى كسب معلومات معينة ، وتعلب الذاكرة الدور الأول فى هذا الكسب ، وتخص بالذات الذاكرة اللفظية ، ومهمة الصبيان أن يحفظوا عن الكتب أو عن المعلم ، وأن يعيدوا ما حفظوا دون تلعثم . والصبى المتاز هو ذلك الذى يجيد حفظ كل ما لقن كلمة بكلمة ، وحرفاً بحرف .

ولسنا فى حاجة إلى بيان فساد هذه الطريقة التى تعتمد على الاستظهار والتسميع ؛ وقد هاجم مونتينى هذه الطريقة فى شدة ، ومما يؤثر عنه قوله : «لا معرفة مع الاستظهار»[٣٨] .

وقد انتهى بعض العلماء إلى ازدراء الحفظ ، والعمل على الحد من الغلو فى التذكر اللفظى ، فنظروا إلى الحفظ كأنه من العمليات العقلية الوضيعة ، مؤيدين وجهة نظرهم بأن كثيراً من البلهاء وضعاف العقول ينعمون بذاكرة قوية ، وبعض الأذكياء ذاكرتهم ضعيفة[٣٩] .

ولكن ازدراء الذاكرة والنظر إليها هذه النظرة القليلة الأهمية ، فيه بعدٌ عن الحقائق النفسية . وتدل نتائج البحث فى الأمراض النفسية على أن فقدان الذاكرة

---

(٣٨) Savoir par coeur n'est pas savoir.

(٣٩) Tendances de la Pédagogie Cont emporaine. Ch. VII. Les Grandes

يؤدى إلى اضطراب الحياة العقلية وفساد السلوك .

ومما لا شك فيه أن الذاكرة الجديدة تخدم علماء الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان ، لأنهم فى حاجة إلى استظهار كثير من القوانين الرياضية والمعادلات الكيمائية التى تتألف منها مبادئ المعرفة الصحيحة الضرورية .

ولا يستطيع الإنسان إجادة اللغة دون معرفة كثير من الألفاظ وقواعد النحو والصرف .

وقد ظن كثير من علماء النفس والتربية أن هناك تعارضاً بين الذكاء والذاكرة ، والحقيقة على خلاف ذلك ، لأن موهبة الذكاء وحسن التفكير مما يخدم الذاكرة فى سرعة التحصيل ، وجودة الحفظ ، وسهولة الاسترجاع . وفى ذلك يقول وليم جيمس : «إن فن التذكر هو فن التفكير»(٤٠) .

والخلاصة أننا لا ينبغى أن ننظر إلى الذاكرة كما كان علم النفس القديم ينظر باعتبار أنها ملكة مستقلة من ملكات العقل ، إذ الواقع أن الحياة العقلية كلها وحدة متماسكة ، تتعاون فيها جميع المواهب النفسية على العمل .

قال الأستاذ بييرون : «ومكانة الذاكرة فى حياة الإنسان عظيمة القدر . ومن جهة أخرى فالشخص المثقف ، المضطر إلى مسايرة تقدم المعرفة على مر العصور ، وهى معرفة لا تنفك عن الاتساع والانتشار بالرغم من وسائل التبسيط ، هذا الشخص فى حاجة دائمة إلى الذاكرة . والمجتمع يزن أقدار الطلاب العقلية إذا تقدموا للوظائف بميزان ما حصلوه من الحفظ . وقد نتج عن ذلك ضرورة عملية هى بذل جهد عظيم تحمله الذاكرة»(٤١) .

فالحياة العقلية للفرد لا تنفصل عن الحياة الاجتماعية بل هى جزء منها . والطريق الذى تسلكه الحياة العقلية يستضيء بهدى المجتمع ، ويتأثر به . وفى الوقت نفسه تتشكل الحياة العقلية بحيث تلائم المجتمع .

وقد كان المجتمع فى عصر القابسى يريد معرفة القرآن وما يتصل به من علوم تعين

---

(٤٠) Talks on psychology, William James, p. 14.

(٤١) Nouveau Traite de Psychologie, Dumas, Tome IV p. 128-129.

على فهمه والتمكن منه ، ولا يرغب فى غير ذلك من علوم طبيعية أو خلافها .
ومن الطبيعى أن تكون الطريقة الملائمة لتحصيل القرآن هى الحفظ والتذكر .

تكوين الشخصية :

كتبت مدام منتسورى تقول : «إن أهم ما يميز التربية الحديثة هو احترام شخصية الطفل إلى حد لم يبلغه من قبل»[٤٢].

ونحن لا نتفق مع هذه المربية فى الحكم على الماضى ، فقد يكون هذا الرأى صحيحاً بالنسبة إلى التعليم فى أوربا ، ولكنه غير صحيح على إطلاقه عن التعليم فى الكتاتيب ، ذلك أن شخصية الطفل كانت محترمة إلى حد كبير فى الكتاتيب الإسلامية كما يتضح فى رسالة القابسى .

ونحب أن نوضح معنى الشخصية قبل الاستطراد فى الكلام عن أثر التربية الإسلامية فى تكوينها ، نظراً إلى ما يلابس هذا الاصطلاح من غموض .

فالشخصية على المعنى النفسانى نسبة إلى شخص ، ولهذا كان كل فرد صاحب شخصية . ولكنهم يقصدون عادة من الشخصية ما كانت قوية لا ضعيفة ، وما كانت صالحة للحياة مؤثرة فى المجتمع ، لا تلك التى تعجز عن العمل ، وتنساق فى تيار المجتمع وإلى دوافع الفطرة دون إرادة وتمييز أو قصد وشعور .

والغرض من التربية هو تكوين الشخصية القوية الصالحة . ولا يتنافى هذا الغرض مع ما سبق ذكره من أهداف للتربية ، مثل تنمية مواهب الطفل ، أو إعداده للحياة الاجتماعية ، أو دفعه فى سبيل التقدم والرقى . لأن صاحب الشخصية هو ذلك الذى شحذت مواهبه ، وامتلأت جعبته بأسلحة الكفاح فى الحياة الاجتماعية ، وتهيأ للتقدم المطرد والرقى المستمر . والتقدم هو سنة الوجود ، ودليل الحياة الصحيحة .

وكمال الشخصية فى العلم والعمل ، والفكر والإرادة . والسلوك هو الغاية الأخيرة التى نقصدها من التربية ، بل من الحياة كلها ، أما تثقيف العقل ، وحسن

(٤٢) L'Enfant. Traduit par Georgette Berward, Paris, 1933, p. 120.

التفكير ومعرفة العلم فكلها وسائل إلى السلوك المطلوب ، حتى يستند إلى أساس من المعرفة الصحيحة .

وكان المطلوب فى عصر القابسى تكوين الشخصية الدينية ، يؤمن صاحبها بالله ، ويعتقد بوجوده ، ويعبده آناء الليل وأطراف النهار ، ويذكره فى كل عمل من الأعمال ليميز بين الحلال والحرام .

وقد اختلفت أهداف التربية الحديثة فى الممالك المختلفة ، ففى أمريكا يرمون إلى تعلم المهنة التى يكسب منها الإنسان معاشه . وفى إنجلترا يهيئون الفرد ليكون مهذباً رشيقاً أو على حد تعبيرهم (جنتلمان) . وفى فرنسا يقصدون من التربية الثقافة العقلية وكسب المعارف النظرية[٤٣] .

وتختلف شخصية الأفراد فى البلاد المختلفة تبعاً لاختلاف الحياة الاجتماعية وما تطلبه هذه المجتمعات من أبنائها .

ومهما يكن من شىء ، فالشخص الذى يريد أن يشق طريقه فى المجتمع ، لابد له من إعداد نفسه للنزول إلى معترك الحياة . وفى هذه الحالة يشعر بنفسه مستقلاً عن غيره ، فيعمل على الاستجابة للتأثيرات الاجتماعية ، ثم ينصرف بما يلائم مصلحته الخاصة ومصلحة المجتمع .

وشعور الإنسان نفسه هو المحور الذى تدور عليه الشخصية ، والذى به يتم التأثير المقصود الصادر عن الشعور . وعندما يشعر بشخصه ، ويحس بكيانه كفرد مستقل ، يدرك أن لا سبيل له إلى السلوك الصحيح إلا بكسب المعرفة والتزيد من العلم .

والغرض من التربية والتعليم هو تزويد الأفراد خلاصة الحضارة السائدة فى المجتمع فى وقت وجيز ، حتى إذا كبر الطفل كان على استعداد لمواجهة مطالب الحياة الاجتماعية .

وفى زمن الطفولة يكون الصبى عبئاً على أهله فى كل شىء . وليس هذا من

---

(٤٣) Les Grandes Tendances de la Pédagogie Contemporaine. p. 16—17

مصلحته أو مصلحة المجتمع . ومصلحة الطفل أن يعتمد على نفسه ، أو أن يتعلم الاعتماد على النفس حتى يستمد أسباب القوة المعينة على التقدم والنجاح . ومصلحة المجتمع فى وجود أفراد من أصحاب الشخصيات القوية حتى يرتقى المجتمع . أما العاجزون فهم عبء ثقيل يسوق المجتمع إلى التأخر والضعف والانحلال .

ولم ينس القابسى وهو يقوم على تربية الأطفال أن يمهد لهم سبيل تكوين الشخصية القوية التى يعتمد صاحبها على نفسه ، ويستطيع أن ينهض بما تتطلبه حاجة البيئة ومطالب المجتمع . وعنده أنه لا بأس أن يقوم الصبيان بأعمال لها فائدة فى تخريجهم .

منها أن يكتب الصبى للناس . سئل القابسى : «هل يؤذن للصبى أن يكتب لأحد كتاباً ؟ . فقال : لا بأس ، وهذا مما يخرج الصبى إذا كتب الرسائل» ٦٣ – ا .

ومنها أن يعلم بعضهم بعضاً : «ولا يحل له (أى المعلم) أن يأمر أحداً أن يعلم أحداً منهم إلا أن يكون فيما فيه منفعة للصبى فى تخريجه» ٦٣ – ب .

ومنها أن يملى بعضهم على بعض ، وذلك فى الأوقات التى يستغنى فيها الصبيان عن المعلم : «مثل أن يصبروا إلى الكتابة ، وأملى بعضهم على بعض ، إذا كان فى ذلك منفعة لهم ، فإن هذا قد سهل فيه بعض أصحابنا» ٦٤ – ا .

فمن المنفعة لهم أن يملى بعضهم على بعض ، وعلى المعلم «أن يتفقد إملاءهم» ٦٣ – ا .

ومنها أن يجعل على الصبيان عريفاً . والعريف هو الصبى البارز فى العلم يقوم بتعليم الصبيان إذا كان فى ذلك منفعة فى تكوينه . وقد أجاز الفقهاء هذه الطريقة فى التعليم . سئل مالك عن المعلم يجعل للصبيان عريفاً فقال : «إن كان مثله فى نفاذه» ٦٣ – ب .

وعن سحنون : «وأحب للمعلم أن يجعل لهم عريفاً منهم ، إلا أن يكون الصبى الذى قدمهم وعرف القرآن ، وهو مستغن عن التعليم ، فلا بأس أن يعينه ، فإن ذلك منفعة للصبى» ٦٣ – ب .

وهذا كله يتعارض مع قول مدام منتيسورى من أن التربية القديمة لم تكن تحترم شخصية الطفل . ذلك أن تكليف الصبيان بهذه الأعمال كلها ، مثل كتابة الرسائل للجمهور وإملاء بعضهم على بعض ، واصطناع العريف يعلم غيره من الصبيان ممن هم أصغر منه سناً وأقل علماً . دليل على احترام شخصية الصبى ورفع قدره والسمو بمنزلته . إذ أنه يتخذ مركز المعلم نفسه .

ولم تكن شخصية الصبى محترمة فى العلم فقط ، بل فى شئون الدين أيضاً ، فقد أجاز القابسى أن يؤم الصبى إذا بلغ سن الاحتلام وصلح لإمامة غيره من الصبيان فى صلاة الجماعة : «ولكى يتدرجوا على معرفة صلاة الجماعة» ٧٠ – ١ .

هذه حياة كلها جد ، وكلها تَشَبُّه بالرجولة ، لأن الطفل الصغير ينظر إليه كأنه رجل كبير ، فيكلف أعمال الرجال .

وكانت التربية القديمة تضحى بمرحلة الطفولة فى سبيل الإعداد للرجولة . وكانوا يرغمون الطفل على سلوك مسلك الرجال وتعلم أعمالهم وإلا وقع عليه العقاب .

ومن الخطأ الاعتقاد أن سعادة الرجولة تشترى على حساب الطفولة .

حقًّا أن الحياة الاجتماعية فيها كثير من القسوة وتحتاج إلى كثير من الجدّ ، ولهذا ينبغى أن يهيأ الطفل لحياة الجد حتى لا يصدم بما فيها من صعاب وعقبات فى المستقبل . ولكن الجد لا يستلزم العبوس الدائم ، والشدة المستمرة . وقد نهى القابسى عن العبوس فى غير حاجة إليه . كما اللهو لا يعنى المرح المتلاحق ، أو اللعب الذى لا انقطاع فيه .

على أن حياة الطفولة ينبغى أن تنصرف إلى اللعب أكثر منها إلى الجد ، وأن يكون قسط المرح والسرور فيها كبيراً . ذلك أن شقاء الطفولة يترك فى النفس آثاراً لا تمحى وذكريات أليمة تلقى على الرجل ظلاًّ كثيفاً من الكآبة والتشاؤم من الحياة .

لهذا كان من الخطأ أن نحمل الطفل فى وقت مبكر متاعب الحياة وآلام العيش . إننا نخاطر بإضعاف القوى الكامنة فى الفرد ، بتحميلها فوق ما تطيق ، فتنوء فى المستقبل بأعباء الحياة الجسام . وقد أوضح روسو فى كتابه إميل أن واجب المربين

إسعاد الطفل على قدر الاستطاعة حتى يحس الإحساس الصادق بالحياة ، ويتذوق لذة الوجود .

من هذه الناحية نستطيع أن نلوم القابسى ، مع التربية القديمة كلها . لأنه كان يأخذ الصبيان بحياة الجد ، وينهى عن اللهو واللعب .

ثم إن نمو شخصية الطفل لا يتطلب المحافظة على مواهبه من الضمور والانحلال فقط ، وإنما يتطلب شق الطريق أمام هذه المواهب لتتفتح وتقوى . ولا ينبغى الوقوف فى سبيل الطفل ، بل لا بد له من حرية العمل ليكون المجال أمامه فسيحاً للظهور .

وقد رأينا كيف ترك القابسى الحرية للصبيان لأن يقوموا بكثير من الأعمال التى تصلح لتخريجهم ، وبذلك تنمو فيهم المواهب الملائمة لمطالب المجتمع .

ولكن القابسى كان مقيداً بعصره ، ولم يعمل على سبق الزمان وتهيئة الأجيال القادمة للتقدم والرقى ، فاكتفى بإعداد الصبيان لحياة الحاضر ، بل لحياة شبيهة بالماضى ، فهو يدعو إلى معرفة ثقافة السلف ، ويطلب التمسك بها ، والنسج على منوالها ، وعدم التحول عنها .

لهذا عجزت شخصية المتعلمين عن مسايرة التقدم فى الحياة ، إلى أن تغيرت البيئة الاجتماعية فى العصور الأخيرة ، لأن تكوين الشخصية على الطريقة التى يريدها القابسى مقيد بالمجتمع الذى كان يعيش فيه . وكان همه الأكبر أن يصنع شخصية دينية وخلقية .

أما الشخصية الدينية فان تعلم القرآن والقيام على الصلاة فى أوقاتها مما يكفل طبعها على ذكر الله .

والشخصية الخلقية مطلوبة على كل حال ، ولو اضطرنا ذلك إلى إرغام الأطفال . إذ مما لا شك فيه أن الإنسان ينبغى أن يلتزم حدود نفسه فلا يتعدى على غيره باغتصاب أو إيذاء أو ضرب أو سرقة أو أى شىء من ضروب الرذائل التى ترجع فى النهاية إلى الاعتداء على شخص الغير أو ملكه ، ولا يتسنى هذا كله إلا إذا ميز الإنسان نفسه ، وشعر بوجود شخصه واعتقد فى حريته ، ومسئوليته عن أعماله .

ولابد للإنسان إلى جانب ذلك من تكوين عادات صالحة يصبح معها من ذوى الخلق المستقيم ، كالصدق والأمانة والشجاعة وحب النظام والنظافة إلى آخر هذه العادات المختلفة : مما ذكرناه عند الكلام فى التربية الخلقية .

ولا يتم تكوين الشخصية الخلقية ، بتشييد العادات الفاضلة ، وتهذيب الضمير ، إلا بالتعليم والتربية .

ويرى وليم جيمس أن التربية هى تنظيم العادات والنزعات التى ترمى إلى السلوك الحسن[٤٤] . وقد فطن القابسى إلى أثر العادة فى طبع للشخصية ، فنصح بالمبادرة إلى تكوين العادات الخلقية الفاضلة ليألفها الصبيان .

ومما لا شك فيه أن الكتّاب الإسلامى كان له أثر كبير فى خلق الشخصية القوية الملائمة للمجتمع فى القرن الرابع الهجرى . فالصبى بعد ذهابه إلى الكتّاب يصلح لإمامة الناس فى الصلاة ، فضلاً عن معرفة أسرار الفروض والنوافل ، مما يرفع قدره ويسمو بمنزلته ، وكما يتقدم إليه العامة فيكتب إليهم الكتب والرسائل . وبعض الصبيان قد يختم القرآن وهو أهم أنواع المعرفة وأوجبها ، فضلاً عن معرفة العربية وأيام العرب والشعر ، وبذلك يتهيأ له السبيل إلى بلوغ مراتب العلماء .

---

(٤٤) Talks on Psychology, p. 29.